

التعليق الصوتي للبيان في الشعر و القرآن

الدكتور الهواري قارة حدّاش

جامعة السانية - وهران

نريد في هذا المقال اللطيف أن نعلل بعض النماذج البيانية من الشعر و القرآن تعليلا صوتيا لنبيّن للقارئ الكريم مدى أهميّة الانسجام الصوتي في صناعة الخطاب البليغ و لا يكون ذلك إلاّ بالتعاملات الصوتية في الكلمة الواحدة أو في الكلم المتجاورة و لا يكون هذا التعامل إلاّ بتضافر المخرج والصفات معا و دفعة واحدة .

أولاً: " و قبر حرب بمكانٍ قفرٍ * * و ليسَ قَرَبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٍ .

قال الجاحظ: " فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض " و يزعم أن الكلام في ذلك على طبقات: " فمنه المتناهي في الثقل المفرط فيه كالذي مضى و منه ما هو أخفّ منه كقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه و الورى * * معي و إذا ما لمته لمته وحدي .

و منه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان إلاّ أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه و يشهر أمره في ذلك ويحفظ عليه. " ⁴⁶

و يقول في موضع آخر : " و ذلك أنا لا نعلم لتعادل الحروف معنى سوى أن تسلم من نحو ما تجده في بيت أبي تمام. " ⁴⁷ لقد غصّ الطرف عن البيت الأول، و ذكر ما جاء بعده في مرتبة الفصاحة صعوداً.

⁴⁶ - الجرجاني عبد القاهر. دلائل الإعجاز. دار المعرفة. بيروت. 1982م. صفحة 46.

⁴⁷ - المصدر نفسه. الصفحة 48.

قال تعالى: "وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٢٣﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٢٤﴾" الشعراء.

صاحب هذا البيت ظلم في آخر بيت قاله قبل مغادرة الحياة، و هو يدرك تمام الإدراك كيف و من أين سيفارق هذه الحياة التي تفارق بالتأكيد ظروف هذه المغادرة. هذا البيت قيل بين نهاية الصوت و حركته وبين بداية السكوت الأبدى و سكونه، هذا البيت قيل مع أواخر أنفاس الشاعر الذي كان يرى مكان نهايته الذي أّج في أعماق نفسه مرارة الغربة و الحزن و الوحشة و الوحدة و حرقة زهد الأحباب فيه. كلّ هذا يقاوم و نبض الحياة في القلب، و لكنّه يدرك أنّه ميت لا محالة، و ستخدم المقاومة فيه و سيستسلم لدافنه و لم يبق له من عزاء إلاّ ذكريات الحمد في اسمه. و المكان الموجل في الفقر يشملّه ، و القبر المجهول مثواه.

من كانت هذه حاله، و هذه ملابسات نهايته، فهل يخرج الأصوات راقصةً ضاحكاتٍ أم يخرجهن حزينات بطيئات بين حركة و سكون و بين وقوف و قعود كما جاء في كلمه؛ قَبْرٍ حَرْبٍ، قَفْرٍ، لَيْسَ، قَرْبٍ. وتكرر القبر ثلاثاً و كان بداية، لأنه المصير و ارتبط بالاسم مرتين مضافاً، و في الثالثة تأخر عنه، بدأ به وانتهى به و لا يؤلمه الموت و لم ينتبه إليه و لم ينبّه عليه و إنّما الذي آلمه غياب الأنيس حتّى و لو كان في مجاورة قبر مجهول.

قال الشاعر كلّ ما كان في أعماقه من حزن في صدر البيت في أربع كلمات، و أكّد أحزانه نفسها و بالغ في ذلك و حدّد نقطة وجعه بعد موته بتغيير كلمة مكان أخرى و نفي المجموع بليس.

لقد أجهّد نفسه بإسرافه في نَفْسِهِ بزيادة الواو في الشطر الثانى، و لو استغنى عنها لكان أبلغ، و لعلّه قالها بعد انقطاع محسوس.

هذا البيت لا يقرأ على عَجَلٍ، بل يترتّب قارئه ليكنّ لسانه من إخراج أصواته كما ينبغي لها أن تُلفظ.

أمّا بعض ألفاظه تتبرأ من بعض، كلام يتبرأ منه صاحب الذوق السليم. الأصوات المستعلمة في هذا البيت محدودة جدّا و هي القاف و الباء و الراء و الحاء، و هي تنتمي إلى ثلاث عائلات صوتية، فالقاف و الباء من العائلة الشديدة المجهورة و الراء من العائلة المتوسطة و الحاء من العائلة الرخوة المهموسة الحلقية. و لا إشكال في النطق إلاّ عند تقدم الباء عن القاف في موضعين "قرب قَبْرٍ" "حرب قَبْرٍ" و في

الحالة الثانية يتدخل التنوين فيفصل بين الباء والقاف، و عند إظهار التنوين عند النطق يضمحل إشكال النطق. القاف من أقوى الأصوات على الإطلاق، و الباء من أخفّ أصوات العائلة و الراء من أحسن الأصوات انتلاقاً مع أغلب الأصوات اللغوية، و الحاء صوت حلقى، و هو من أخفّ الأصوات الرخوة المهموسة، و هو صوت أساسيّ لأنّه حلقى، و أحسن الجذور الثلاثية، و أفضل الثلاثي ما كانت كلّ أصواته مجهورة و أفضل المجهور ما كان شديداً لمدّ الجذر بالقوة أو كان متوسطاً لمدّه بعذوبة الائتلاف و التجاور و الانسجام. و أخفّ الحركات السكون و أخفّ فاصل بين الحركات السكون و كلّ الكلم ساكنة الوسط، و أخفّ المدود الألف يليه النون الواحد فكيف إذا وليه نونان؟! حسن الانسجام لا يضيره سوء الإلقاء و لا يزيد حسن الإلقاء من نقص الانسجام. شاعرنا مرهف الحسّ، اجتماعي الطبع محبّ الأنس، لا يؤسفه الموت و إنّما يحزنه عدم مؤانسة القبور لقبره.

ثانياً: قال تعالى: **وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴿٤٨﴾ "هود".

" و هل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحة، إلا و هو يعتبر مكانها من النظم و حسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، و فضل مؤانستها لأخواتها؟ و هل قالوا: لفظة متمكنة و مقبولة، و في خلافة: قلقة و نابية و مستكرهة إلا و غرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه و تلك من جهة معناها و بالقلق و النبؤ عن سوء التلاؤم و أن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، و أن السابقة لم تصلح أن تكون لَفَقاً للتالية في مؤدّاهما؟".⁴⁸

كلام الجرجاني رحمه الله، عن تمكن الألفاظ فيما بينها في حسن التلاؤم و الانسجام في غاية الروعة في ظاهره و باطنه، إلا أنّه يقحم المعنى و يذكر به دائماً و يعزو إليه السبب في كل ذلك،" من جهة معناها" " في معناها" " مؤدّاهما". و كأنّ الشأن في صناعة الخطاب، هو اختيار اللفظ ثم صبّ المعنى المراد فيه، كأنّه يغفل عن ارتباط المعنى باللفظ و ارتباط اللفظ بالمعنى، كما يتمسك العسل بشهده، وكما

⁴⁸ - الجرجاني عبد القاهر. دلائل الإعجاز. دار المعرفة. بيروت. 1982م. صفحة 36..

يمسك الشهد بعسله فلا فكاك بين اللفظ و المعنى و لا تقدم و لا تأخر بينهما، يسيران كسير العود وظله. لا تستوي المعاني دون استواء الألفاظ، و لا تتسجم الألفاظ دون تعانق المعاني.

و لو أفردت الكلمة، أو رميت بها على قارعة الطريق كما يحلو لهم القول، هل تفقد معناها أو هل تستقطب معاني أخر إلى معناها بطول الطرح؟ و هل يصنع الخطاب بغير نظم الألفاظ بمعانيها. الأمر في غاية الدقة و الزهف، الأمر في رصف و نظم الأصوات في اللفظ قبلاً و الحمد لله على نظم الأصوات في الجذور قبل صياغة الصيغ، و الحمد لله ثانياً على بناء الصيغ فلم يبق للمبدع سوى حسن الاختيار بعد الاختيار إلى نهاية الاختيار.

لقد مثل **الجرجاني** بالآية الكريمة، و لا نقول أحسن التمثيل، و إنما الحسن في كل آية.

و لكنه أحسن التنبيه و ليس كل التنبيه. لقد أمرت الأرض و السماء في البدء فأطاعتا الأمر فنديتا بياء النداء في النهاية تكريماً لهما لامتثالهما لأمره، و لقد أطاعتا الله قبل هذا و ذاك يوم خلقهما. " **ابْلَعِي** و **أَقْلَعِي** " الباء و القاف، من عائلة واحدة فيهما تشابه في الصفات و بالتالي في القوة، و بدأ بالأرض لأن أمرها يتطلب وقتاً، و آخر السماء لأن أمرها حيني. و الأرض مسؤولة عن الماء، و أغلب ما يملأ الأرض الماء و لهذا أضيف الماء إلى كاف الخطاب " **ماءك** ". الماء سبب الإغراق، فإذا غار في الأرض، قضى الأمر. قوة القاف لقوة الفعل. و كذلك صوتا الجيم و الدال من العائلة نفسها في كلمة " **الجودي** ". و الباء و الدال و القاف في بعداً و القوم و قيل. و هذا كله انسجام صوتي قبل انسجام الكلمات و المعاني.

بعداً هنا هلاكاً، و كل بعد بعده رجوع لا يريح المظلوم، لأن الظالم مجبول على المعاودة و لا أمن و لا طمأنينة للمقهور إلا بهلاك الظالم بعيداً عن أنظار الناجين.

الهمزة و الضاد و الظاء كلها أصوات قوية و مجهورة، و قد طغت الهمزة عليها لأنها حلقية و الصوت الحلقى أساسى في الجذر. و جاءت الضاد ثانية في ثلاث كلمات أرض و غيض و قضى، و الظاء في كلمة واحدة لأن الضاد أقوى من الظاء لأنها رخوة تكررت الهمزة ست مرات و القاف خمس مرات و الباء مرتين و الظاء مرة واحدة و هذا حسب أهمية الصوت في الآية، و كلها مجهورة و كلها شديدة إلا الظاء، و أحسن الأصوات و أقواها المجهور الشدید و الحلقى و القريب من الحلق و المطبق وكلها قوية، و متنوعة في نوع القوة بتنوع المخارج دون الصفات. الجهر دون الصفات الأخرى قوة في الجذر، وأغلب أصوات الآية مجهور و القليل منها مهموس كالسين و التاء و الكاف، و الوحيد الرخو السين، فهل بقي

للمعنى من شأن يفوق انسجام الأصوات في الكلمات قبل انسجام الكلمات فيما بينها بمباركة المعاني؟! وقديما قيل لا يستقيم الظلّ و العود أعوج، و كذلك لا تستقيم البلاغة و اللفظ أعوج، و ما البلاغة، في جوهرها، في نهاية القول، إلا الظلّ الظليل للألفاظ المستقيمة المنسجمة.

قال تعالى: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ " الكهف.

ثالثا : سورة الليل: سورة مكية مبكرة و آياتها إحدى و عشرون آية و ترتيبها في المصحف اثنان وتسعون" و المشهور في ترتيب نزولها أنها تاسعة السور، نزلت بعد سورة الأعلى ثم نزلت بعدها على الترتيب سورتا الفجر و الضحى⁴⁹ تنتهي فواصلها بالألف المقصورة، فهي من السور المتماثلة في الظاهر، المتنوعة أشدّ التنوع في السمع، لأن الألف المقصورة امتداد لما يردفها من الأصوات، و هي من أخفّ المدود. المدّ بالألف مدّان مدّ سابق على الصوت و مدّ لاحق عليه، و هذا تنوّع لم ينبّه عليه عند الحديث عن الفواصل، فالسابق للترنّم مع النون و الميم في أغلب الفواصل، و هذا مدّ للنزول بالصوت من علّ و إخراج كلّ النّفس. الشين و التاء من عائلة واحدة، و الشين أقوى من التاء، و اللام و النون والراء من عائلة واحدة. و التاء و الكاف من عائلة واحدة كذلك و القاف و الدال من العائلة نفسها، والطاء

و الضاد من العائلة المطبقة. و الزاي من العائلة المجهورة الرخوة. أغلب الأصوات المردوفة للألف المقصورة مجهورة و هي أقوى و أوضح في السمع و أقلّها مهموسة. البدء همس و الليل ستر وهمس، وبعده جهر و النهار نور و ظهور و وضوح و الذكر قوة و الأنثى لطافة و همس. هناك تشابه بين البداية و النهاية في التاء و الكاف " **لَشْتَى** " " **يَتَرْكَى** ". و بين الطاء و الضاد تقابل في الجزاء بين النار و الرضا، و رضوان الله أكبر فناسب الضاد و الطاء أخفّ للإنذار بالنار. و لم تأت الصاد و لا الطاء لأنهما من الأصوات المهموسة المطبقة على خلاف صاحبيهما المجهورين فهذا تنوّع عجيب في الأصوات السابقة على الألف المقصورة يكسبها تناعما موسيقيا تطرب الآذان و القلوب. و كذلك القاف

⁴⁹ - بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن. التفسير البياني للقرآن الكريم. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة، الجزء الثاني. الصفحة 97.

في البداية في " أنقى " و في النهاية في " الأشقى " و التقارب بارز بين التاء و الشين و كذلك وجود الدال في الوسط في آيتين " تَرْدَى " " لَهْدَى ". كل شيء موزون، و كل شيء في موقعه لا يزيد النفس إلا أسراً و شغفاً لسماع هذا القرآن كلام رب العزة.

رابعاً: اتأقّلتم:⁵⁰ هناك تناظر بين تصرف الصوت و تصرف المنافق. كما تقاعس المنافق عن الجهاد وأخذ إلى الأرض و لم يرد أن يرتفع إلى درجة المؤمن الصادق المجاهد، كذلك تقاعس صوت التاء عن الارتفاع إلى صوت التاء ليقال **اتأقّلتم**، كما هو الشائع في صيغة افتعل، لأن التاء صوت مهموس وشديد و التاء صوت مهموس و رخو، و الضعيف المتقدم يرتفع إلى القوي المتأخر، و لكنّ هذا لم يحدث و أخذ التاء إلى الضعف و جرّ معه التاء و أصبح الفعل مضعّف التاء، أي مضعّف الضعف. فتشابه تصرف الصوت في هذه الصيغة مع تصرف البشر الخانع فالصوت التصق بأخيه التاء فلم يفارقه و دخل فيه و ألزمه ضعفه كما التزق المنافق بالأرض فلم ينهض للدفاع عن الحقّ، و رفع كلمة التوحيد والإيمان الصادق بالله و هذا رضا بالهوان و الدنية لنقص اليقين و العلم و الإيمان في القلب. و لو بادر بالنهوض لبدا له ما غاب عنه ممّا في الآخرة ممّا يصبو إليه كل عاقل و ممّا هو أحسن من ذلك.

فكلّ تصرف في الأفعال من طرف الفاعل في الواقع المتداول بين الناس إلا و له صورة منعكسة على حال الأفعال في اللغة. فهذا تناظر و تناسب بين واقع الفعل و بين أصوات صيغ الأفعال في اللغة العربية في الاستعمال.

خامساً: يصطرخون:⁵¹

هنا كذلك نجد صيغة افتعل. الطاء هنا ليست أصلية ، و إنما هي تاء ارتفعت إلى مستوى الطاء من مخرجها و صفاتها إذا استثنينا الإطباق. لتضارع الصاد السابقة عليها لأنّ الصوت القوي إذا تقدّم يؤثّر على الصوت اللاحق له لكي يرفعه و يكون مضارعاً له. و التاء ليس أمامه إلا الارتفاع إلى الطاء أو الدال لأنهما من مخرج التاء و اتجاهاها إلى الطاء في هذه، لأن الصاد صوت مطبق و مهموس و لا

⁵⁰ - سورة التوبة، الآية : 38.

⁵¹ - سورة فاطر، الآية: 37.

يشابهه في هذا إلا الطاء، و لو كان قبله صوت مجهور كالزاي مثلا لاتجه إلى الدال لأن الدال صوت شديد و مجهور و الجهر هو الغالب على كل الصفات الأخرى. و التاء يرتفع إلى الطاء أو الدال لأنه يركب طرف اللسان يزحزحه من نقطة إلى أخرى و هذا ما لا نجده يحدث مع الأصوات التي لا تتركب طرف اللسان، كأصوات الحلق و اللهاة لأنها لا تتركب متحركا، و لهذا قالوا أصوات الحلق لا تدغم و لا يدغم فيها و عللوا ذلك بقلتها، و العلة ما وضّحنا.

إنّ القوة التعبيرية و التصويرية في هذه الكلمة تكمن في توالي ثلاث أصوات مهموسة و هي الصاد و الطاء و الخاء، و الهمس هو أضعف الصفات و اختلاطه مع أقوى الصفات الأخرى كالشدة والإطباق ليختلط الضعف بالقوة و هو ما يقابل ضعف الكفار و المنافقين في عذاب جهنم و قوة صراخهم فيها لا يرجون من خالقهم إلا أن يخرجهم منها. و هنا تقابل و تعانق بين القوة و الضعف في الفعل الحقيقي بين ما كان من الكفار و غطرتهم و إعراضهم عن توحيد الله و غرتهم قوتهم الزائفة وشاء اختيارهم، لاختيارهم الكفر عن الإيمان و جهنم عن جنة الرضوان، فكان ضعفهم و هوانهم يوم الحساب ودخلهم عذاب جهنم و قوة صراخهم فيها. هذا ما بقي لهم فعله، فصارع ضعفهم و هوانهم ضعف الهمس، و صارع الإطباق و الشدة و مخرج الحلق قوة صوت صراخهم فيها لتظهر بوضوح قوة ضعفهم في قوة اصطراخهم و امتدّ ضعفهم و صراخهم إلى أبد الآبدين مع الواو المدية المردفة لصوت النون الخفيفة والواضحة أحسن الوضوح في السمع، و لم يبق لهم سوى أن تسمع اصطراخهم في العذاب الذي لا ينتهي.

سادساً: " قال تعالى: **يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً** " الطور.

جاء الفعل دَعَّ و لم يأت دفع. دَعَّ فعل فيه شدة و قوة. و قوّته حاصلة من جهر جميع أصواته

و من تضعيف صوت العين في نهايته، و قوة الجذر في قوة نهايته. و ضم جهر الدال و شدته

إلى جهر العين و قوته لأنه صوت حلقى إلى جهر العين المضعفة. و هو بهذه البنية أقوى من الفعل دفع، لأنّ الهمس قد تخلّل الفعل و استقر في وسطه بين الدال و العين، و فصل بين الجهرين و الفصل بين جهرين في نهاية الجذر تحطيم لقوته، و صدع في الجذر يورثه الضعف، و يبدد قوة الفعل حقيقة، ولهذا كان فعل دفع أضعف من فعل دَعَّ لدخول الفاء في الوسط، و الفاء صوت مهموس من أضعف

الأصوات لرخاوته و ترقيقه و تقدم مخرجه إلى الشفة و الأسنان، و لهذا دَعَّ أنسب لكثرة و همجية و تطاحن أهل الكفر و هم يساقون إلى جهنم يجتهدون كلَّ اجتهدٍ ليتخلف واحد منهم عن قريبه.

سابعاً: الأصوات الحسنة و الأصوات غير المستحسنة.

قال ابن جنّي: " و اعلم أن هذه الحروف التسعة و العشرون قد تلحقها ستة أحرف تتفرع عنها، حتى تكون خمسة و ثلاثين حرفاً. و هذه الستة حسنة يؤخذ بها في القرآن و فصيح الكلام، و هي النون الخفيفة و يقال الخفية و الهمزة المخففة، و ألف التخييم و ألف الإمالة و الشين التي كالجيم و الصاد التي كالزاي. و قد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف، و هي فروع غير مستحسنة و لا يؤخذ بها في القرآن و لا في الشعر، و لا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبلة، و هي: الكاف التي بين الجيم و الكاف و الجيم التي كالكاف و الجيم التي كالشين، و الضاد الضعيفة و الصاد التي كالسين و الطاء التي كالطاء، و الضاء التي كالطاء و الباء التي كالميم و لا يصح أمر هذه الحروف الأربعة عشر اللاحقة للتسعة و العشرين حتى كملت ثلاثاً و أربعين إلا بالسمع و المشافهة. و سنفصل ذلك إن شاء الله ".⁵²

لقد وعد رحمه الله بالتفصيل، و لم يفصل إلا في المستحسنة، و اعتذر عن شرح المستقبحة. قال: " فأما الثمانية اللاحقة بهذه فهي مستقبحة، و في شرح أحوالها طول فتركناه لذلك، لاسيما و ليست الحاجة إليها كهذه إلا أن المشافهة تأتي عليها و توضح لك حالها ".⁵³

لا يهمننا شرحه و لا تفصيله إذا كان يقوم بمثل ما قام به مع المستحسنة، لأن الأهم في كل ذلك هو تحديد علّة الاستحسان و الاستقباح، و لم يفعل.

إذن ما علّة ذلك؟

لا نقول النون الخفية، لأن ما يسمع ليس بخفي، و إنما نكتفي كما حددها بالنون الخفيفة، فهي

⁵² - ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب. تحقيق: حسن هندراوي. دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى/ 1985م. الجزء الأول.

الصفحة 46.

⁵³ - المصدر السابق. الصفحة 51.

فعلا خفيفة تخلصت من الحركة و أصبحت ساكنة و تخففت من جزء من هوائها و سلكت مجرى الأنف، لجرّ الهواء إلى الأنف، و إحداث الغنة بعد ذلك للترتم و اللعب و الغناء بالصوت الخفيف و لم تفقد شيئا من خصائصها أو صفاتها فهي هي و إنّما غيّرت مجرى خروج هوائها، و هذا لا يدخلها في زمرة المستقبحة. و تخفيف الهمزة المحققة إلى ثلاثة همزات مخففة، فهو كذلك تخفيف في النطق، و لم تفقد خصائصها، و إنّ كان تحقيق الهمزة فيما أحسب أخفّ من هذا التخفيف بالتفخيم و الإمالة و الله ورسوله (عليه الصلاة و السلام) أعلم.

أمّا الشين التي كالجيم، و الصاد التي كالزاي، فقد تغيرت أحوالهما من صوت إلى آخر إلا أنّ التغير كان للأحسن؛ من الضّعف إلى القوة، من الهمس إلى الجهر، و من ضعف المخرج إلى مركز قوته، لأنّ الشين من حيّز الجيم و الصاد من حيّز الزاي و انتقال الشين إلى الجيم و الصاد إلى الزاي يكسبها قوة إضافية على قوة الجهر المكتسب، لأنّ الشين و الصاد مهموسان لا إشكال في ذلك.

أمّا المستقبحة على خلاف المستحسنة، فيها تغير في صفاتها و مخرجها و تغييرها للأسوأ

و ليس للأحسن، لأنّها تتخلّى عن بعض قوتها، و فقد القوة من الصوت قبح لا تستسيغه و لا تقبله اللغة، لأنّ السنّة المتبّعة في تعاملات اللغة العربية البحث دائماً عن القوة، و التوجّه إليها، و كلّ توجه معاكس لهذه السنّة مستقبح.

الجيم التي كالکاف و الجيم التي كالشين و الضاد الضّعيفة و الصاد التي كالسين و الطاء التي كالتاء و الطاء التي كالتاء و الباء التي كالميم، كلّ هذه الأصوات المستقبحة من حيّز الذي نزلت إليه، إلاّ الكاف فهي أعلى من الجيم و هما متجاوران. و كلّ هذه الأصوات المرذولة فقدت نصيبا من قوتها، و هذا مخالف لسنة تعامل الأصوات، و هي البحث عن القوة. الجيم التي تفقد جهرها و تكون كافاً أو شيناً، ماذا يبقى من حسن قوتها؟! و الضاد الضّعيفة اسم على مسمى و هو إشارة على توجه القوة نحو الضّعف. والصاد المطبقة عندما تصبح سينا و الطاء المطبقة كذلك حين تنزل إلى التاء و الطاء المطبقة المجهورة عندما تفقد الجهر و الإطباق، فما يبقى لها من حسن و قوة و جمال في الصوت؟!

الباء التي كالميم عندما تنزل إلى الميم من الشدّة إلى التوسط، تنزل من حيث لا تقدر الميم الصعود إليه و لو صعدت الميم إلى الباء عندما تباشر النون الباء، لكان الأمر طبيعياً، و لكنّ الطبيعيّ لم يقع، فكيف يقع الذي هو غير طبيعيّ؟! من هنا خالفت هذه الأصوات في توجّهاها الأصوات المستحسنة لهذا كانت

مستقبحة لأنّ الصوت توجّهه السلىم و الطبقىّ نحو القوّة أو يحتفظ فى أسوء الظروف على صفاته ومخرجه. أمّا الكاف التى بىن الجىم و الكاف لا ندرى ماهى!

ثامناً : " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ " القمر.

مدكر : مفتعل من صىغة افتعل، اذتكر، من الفعل الثلاىى ذكر بالذال المعجمة. الذكر بالذال و المهتمّ به بالذال، ما العلّة فى ذلك؟ صىغة ذكر الثلاىى، إذا تحوّلت إلى صىغة افتعل، يكون لها أكثر من صورة، وكلّ صورة تمثّل قوّة محدّدة فى الفعل حقىة كمارسة، و فى المعنى كفكرة تلامس ذهن السامع.

ذكر: فى صىغة افتعل اذتكر. تقدّم الذال عن التاء و الذال بجهره أقوى من التاء بهمسه. و قانون التعامل الصوتى يدفع التاء إلى الصعود إلى مرتبة الذال أو إلى مرتبة أعلى من مرتبة الذال. التاء و الذال والذال من حىز واحد، و التاء لا يقوى إلّا باكتساب الجهر و الجهر فى الذال و الدال، إذن للتاء احتمالان للحصول على الجهر و غرض من يخاطب أن يختار ما يناسبه من الصىغ لىدل على ما ىريد من المعانى. فله أن يقول اذتكر، برفع التاء إلى أقصى درجة فى القوة، و هى هنا تتمثّل فى الدال و هو من أقوى الأصوات المجهورة و الشدىة. أو أن يقول اذكر، و ذلك برفع التاء إلى الذال و هو أقلّ قوّة من الدال لأنّه صوت رخو. أو أن يقول اذكر و هذا رفع مزدوج من التاء إلى الدال و من الذال إلى الدال كذلك، و هذه أعلى مرتبة تصل إليها صىغة افتعل فى القوة. لأنّ الذكر المىسر بحاجة إلى قوّة فى الحضور، و قوّة فى التّمعن و التّدبّر و تجمىع العقل و القلب فى قوّة واحدة لىفىد من قراءة و تدارس القرآن الكريم.

و من لم يكن حاضر الذهن، متوقّد الفكر، لىّن القلب، مستنفر جمىع الحواس لن يتعدى حدود التلاوة و لن ىجد طعم التّدبّر و تفكّر و تمعن فى الذكر. و الذكر جاء بالذال و هو لا يكون على أكثر من صورة واحدة، و هو الحفظ و العلم و هما يتصلان بالحقّ و حال الحقّ هو المهم و الأساس فى عملىة الحفظ و العلم، لهذا جاء فى أقوى صىغة للفعل ذكر، و هى مدكر و هذا ما يناسب كشف أسرار القرآن.

ئاسعاً: « نظام التعلل الصوتى بىن أصوات النون و المىم و الباء » .

كلّ التعللات الصوتىة بىن الأصوات على تباعء مئارجها أو تقاربها أوعلى المبالغة فى القرب أو البعء، تخضع طائعة لقانون القوة و الضعف و لموقعها فى كلمة واحدة أو فى كلمئىن فى موقع النهاىة والبداىة، إذا تقدم القوة عن الضعف، أو سبق الضعف القوة. و لا ىخرج الصوت فى تعللاته عن مئال عائلته.

فالنون و المىم و الباء تلتقى فى كلمة و فى كلمئىن. تلتقى النون مع المىم بالتقءىم و التأخىر. و تلتقى النون مع الباء بالتقءىم و التأخىر كذلك و تلتقى المىم مع الباء بالتقءىم و التأخىر. فى كل لقاء بىن هءه الأصوات ىمكن أن نجء بعض التعللات، و ىمكن أن لا نلاحظ ذلك.

نحاول توضىح ذلك من خلال الآىات القرآنىة ، لأن القرآن هو فصل الخطاب.

و سنبدأ التمثىل بالآىات التى تملو من كلّ تعلل صوتى بىن هءه الأصوات.

1- المىم قبل النون الآىة : " قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (2) " من سورة نوح. المىم ساكنة و النون مفتوحة و لا ىوجد التعلل بىنهما.

2- النون قبل الباء الآىة : " وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) " من سورة الجن. النون مفتوحة و الباء مكسورة، و لا شىء بىنهما.

3- النون قبل المىم الآىة : " إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20) ". من سورة المزمل. النون مضمومة والمىم مكسورة، و لا شىء بىنهما.

4- الباء قبل النون الآىة : " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) " من سورة هوء. الباء مكسورة و النون مضمومة، و لا شىء بىنهما.

5- الباء قبل النون الآية: " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) " من سورة هود. الباء ساكنة و النون مفتوحة، و لا شيء بينهما .

6- الباء قبل الميم الآية: " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) " من سورة هود. الباء مفتوحة و الميم مفتوحة، و لا شيء بينهما.

7- النون قبل الباء الآية: " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) " من سورة هود. النون ساكنة و الباء مفتوحة، و لا شيء بينهما .

8- الباء قبل الميم الآية: " قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) " من سورة هود. الباء مضمومة و الميم مفتوحة، و لا شيء بينهما.

9- الميم قبل الباء الآية: " وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) " من سورة يوسف. الميم منوثة بالضمّ و الباء مكسورة، و لا شيء بينهما.

10- النون قبل الميم الآية 24: " بَبْطَنَ مَكَّةَ " من سورة الفتح. النون مكسورة و الميم مفتوحة، و لا شيء بينهما.

هذه لقاءات بين النون و الميم و الباء قد خلت من أيّ تعامل صوتي.

النون أخفّ من الميم، و الميم أخفّ من الباء، و النون و الميم من عائلة واحدة، و الباء من عائلة أخرى غير عائلة النون و الميم.

النون المتحركة تشبه الميم في كلّ الصفات و تختلف عنها في المخرج، و الميم المتحركة من مخرج الباء، و تختلف عنها في الصفات. و النون تختلف عن الباء سواء كانت متحركة أو ساكنة. و النون الساكنة تشترك مع الميم في المخرج و الصفات.

للنون مع الميم تعامل صوتي إذا كانت ساكنة، و كذلك لها تعامل مع الباء بالشرط نفسه. و ليس للميم تعامل مع النون أو الباء إذا تقدمت عنهما. و للباء تعامل مع الميم إذا تقدمت عن الميم. و ليس لها مع النون تعامل إذا تقدمت عنها. و نمثل لكل هذه التعاملات الصوتية مع تعليل ذلك.

النون الساكنة قبل الميم الآية: "أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى (37)". من سورة القيامة. هنا النون الساكنة ترتفع إلى مستوى الميم حتى تصبح في قوتها، و تماثلها تمام التماثل، و تدغم فيها، و يكون الإدغام من الضعيف إلى القوي.

النون الساكنة مع الباء الآية: "وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)". من سورة الجن. النون من عائلة و الباء من عائلة أخرى، و لا علاقة بين الصوتين. فلا تعامل بينهما، و إنما يكون التعامل بين النون و الميم المصاحبة للباء في المخرج. فالنون هنا تصل إلى الميم أعلى درجة في هذه العائلة، فتقترب من الباء و لا تدغم

فيها على ضعفها، لأنها لا تشبهها في الصفات، و لا يدغم الصوت في غيره حتى يماثل لاحقه، و لم تماثل الميم الباء فبقيت ظاهرة و لم تدغم.

الباء الساكنة قبل الميم المتحركة الآية: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42)". من سورة هود. هذه الآية

تقرأ بالإدغام؛ إدغام الباء الساكنة في الميم. و قد قرأ بالإدغام أبو عمرو و حمزة و الكسائي، و يعقوب، رضي الله عنهم، و قرأ الباقر بالإظهار، و الإظهار أجود من الإدغام.

الباء أقوى من الميم، و لا علاقة بين الباء والميم في كل الصفات، إلا في الجهر، و هذا غير كاف لإدغام الباء في الميم مع الاشتراك بينهما في المخرج. فإذا كانت الميم على ضعفها إذا سبقت الباء، وكانت ساكنة لا تدغم في الباء و هذا عند مباشرة النون الساكنة الباء كما مرّ معنا في الآية: "وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)". من سورة الجن. فكيف تخالف

الباء القوية قانون الإدغام الضعيف يدغم في القوي، و لا تدغن الميم الضعيفة لهذا القانون، و هي أولى من الباء في ذلك ؟!

الباء المتحركة بالكسر قبل الميم المتحركة بالفتح الآية: " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96) " من سورة آل عمران.

الباء المكسورة تكون في أقوى صورة لها، و تقدمت عن الميم " مكّة " فالباء صوت شديد و الكاف كذلك صوت شديد بعد الميم، فهنا جرّت الباء القويّة الميم الضعيفة، فأخرتها من مجالها و حولتها إلى باء وساعدها على ذلك وجود الكاف الشديد بعد الميم.

و لولا قوة الباء المكسورة، و وجود الكاف المشدّدة، لما صعدت الميم إلى الباء، و بقيت كما هي في الآية: " وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) ". من سورة الفتح، و الآية: " وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) ".

من سورة يوسف. هذا ما كان من تعاملات هذه الأصوات و هذا ما كان من علل لكلّ هذه التعاملات. و الذي حدث للميم يشبه ما يحدث للتاء في صيغة افتعل حين تصعد إلى الطاء أو الدال. بتقدم ما هو أقوى منها عليها؛ الصاد والزاي.

عاشرا: أعداد و مواقع الأصوات المطبقة في الفواصل.

السورة	العدد	ص. الآىة	ط. الآىة	ظ. الآىة	ض. الآىة
النساء	8	121	108	21 80 154	7 118
الأنعام	1			104	
الأنفال	1		48		
هود	7	109	70 74 84 92	58 86	
إبراهىم	2	21		17	
الكهف	4	64	14 28		100
مرىم	1	1			
الحجّ	2		43	15	
لقمان	1			24	
الأحزاب	1			7	
سبأ	1			21	
ص	3	3 37	22		

السورة	العدد	ص. الآية	ط. الآية	ظ. الآية	ض. الآية
فصلت	4	48	49	50	51
الشورى	1	35			
ق	3	36	13	4	
الصّف	1	4			
نوح	1		19		
الجنّ	1		4		
النازعات	2	21	2		
البروج	1			22	
الطارق	1			4	
الليل	2			14	21
الضحى	1				5

المصادر و المراجع:

- ¹ - القرآن الكريم.
- ² - ابن جنى، أبو الفتح عثمان. سرّ صناعة الإعراب. تحقيق: حسن هنداونى. دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى/ 1985م. الجزء الأول.
- ³ - الجرجانى عبد القاهر. دلائل الإعجاز. دار المعرفة. بىروت. 1982م.
- ⁴ - بنت الشاطى، عائشة عبد الرحمن. التفسىر البىانى للقرآن الكريم. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة الجزء الثانى.
- ⁵ - الجرجانى عبد القاهر. دلائل الإعجاز. دار المعرفة. بىروت. 1982م.